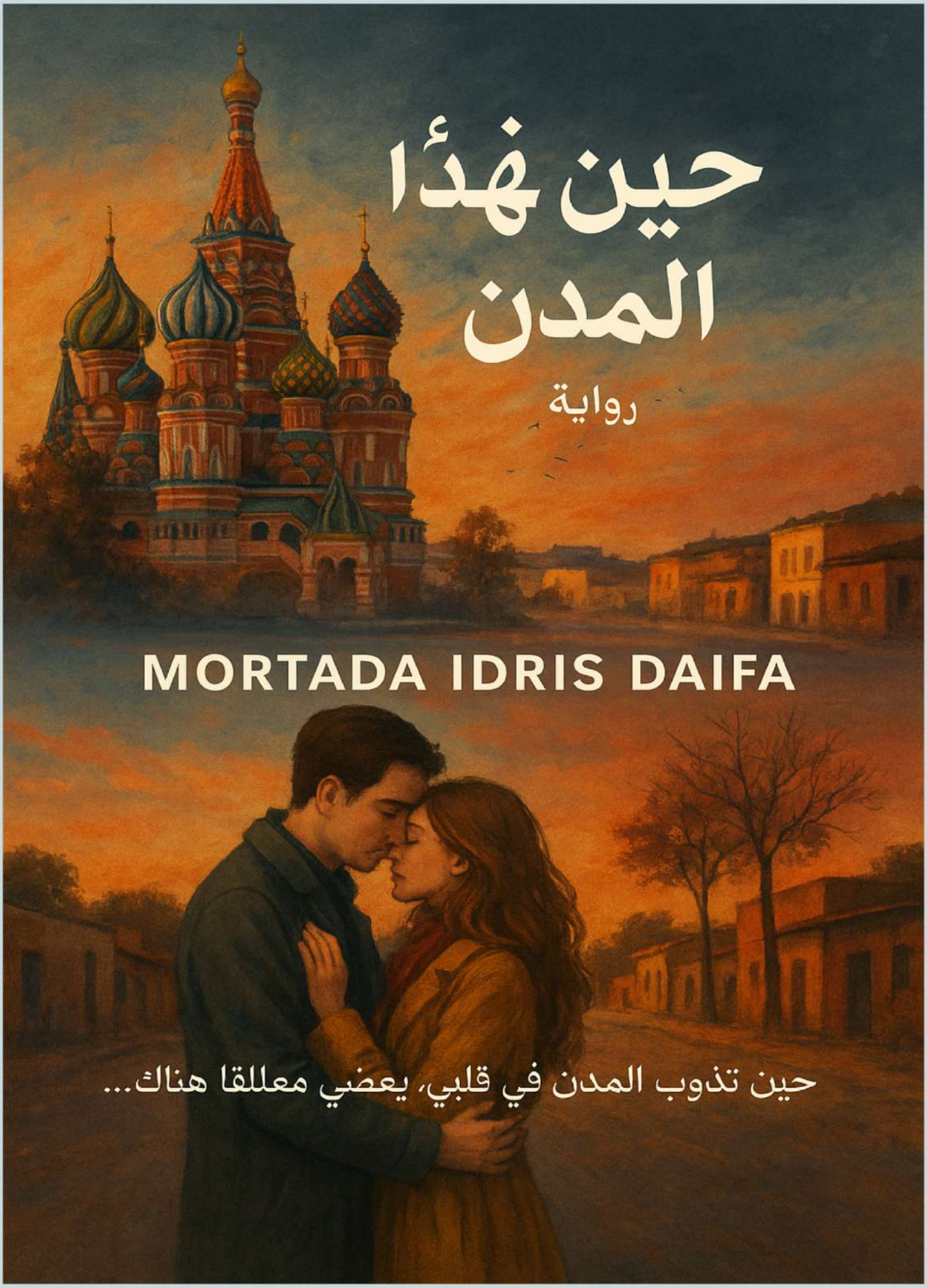
حين نهدأ
المدن
رواية
MORTADA IDRIS DAIFA
حين تذوب المدن في قلبي، يعضي معللقا هناك...

✦ العنوان: «حين تهدأ المدن»

✦ المقدمة

«في ليلةٍ تُشبه بليلة الدوحي، ظلّت السماء معلّقةً بظلالٍ أسود داكن، ولم يكن هنالك من بدايةٍ سوى حبيبتي **ˢBAYSEELˢ** — ليزا — التي اخترقتني بغيابها قبل حضورها، واخترقتني بقربها حين ظننت أن كل شيءٍ قد انتهى.

بدأنا نتناول أطراف الحديث، التفاصيل الصغيرة التي لم تنتهِ بعد، وقصصًا عن حياتي قبل أن أعرف طعم الحب الصافي.

في بداية عام ٢٠٢١، كنت عازبًا أعيش اكتئابًا متلازمًا لا ينفك عن وسادتي. لم أكن أعرف كيف أبدأ علاقةً صافيةً أو جادةً، وكنت أخجل من الحديث مع أي

فتاة.

ثم جاء يومٌ غيّر كل شيء...»

✦ الفصل الأول: «بين الخجل وبدايات الدهشة»

كان عام ٢٠٢١ عام الوحدة الثقيلة. أيامٌ بلا لون، وليالٍ يتسلل فيها الاكتئاب إلى صدري فأصحو كمن يحمل الدنيا فوق كتفيه.

كنتُ شابًا يتوارى من البنات كأنه طفلٌ يخشى فضوله. أحسب الكلام مع فتاةٍ خطيئةً صغيرةً تكبر في القلب حتى تخنقه. لكن القلب حين يجوع للحب، يكسر كل محظورٍ رسمته لنفسك.

في حي الطريفيّة بمدينة الفاشر، وقفتُ أمام أول بابٍ أطرقه ليسكن خلفه حلمي الأول. خفتُ أن أقول

شيئًا، لكني قلت. خفتُ أن أُرفض، لكني قُبلت.

قالت: «أنا موافقة.» فتغيّرت ملامح وجهي من بريق الرفض إلى الأمل.

عانقتني تلك القبلة الأولى كحلمٍ قصيرٍ في ظهيرةٍ بعيدة. حضنها كان يشبه حضن أمي — دافئًا، صادقًا، لا يريد من الدنيا شيئًا سوى أن أبقى حيًا.

لكن للحياة وجوهًا كثيرة، وحين تبتسم لك فجأةً، تأكد أن في جوفها ضحكةً أخرى مخبأةً من سخرية القدر...

✦ الفصل الثاني: «ربيع موسكو وشتاء القلب»

يوم الرفض كان جميلاً رغم وجعه... أشبه بفصل الربيع حين يباغت موسكو بأمطاره الباردة.

كانت السماء مغسولةً بالغيوم، الريح تعزف موسيقاها على أرصفةٍ ضيّقةٍ تلمع برذاذ المطر.

اتصلت بي ريّان — حبيبتي الأولى — وقالت: «عايزة أقابلك ضروري.»

حملتُ قلبي بيدي وذهبتُ مع صديقي أمين، كأنني أحمل أملاً في كفٍ وخيبةً في الأخرى.

وصلتُ باب بيتهم، اتصلت بها... مرةً، مرتين، عشر مرات. ردّت أخيرًا، بصوتٍ باردٍ رفضني من خلف الباب، من خلف المطر، من خلف حلمي الذي كان يفتح ذراعيه لها.

رجعتُ أدراجي مبللًا بالمطر وبالخيبة. في تلك الليلة، حظرتها من حياتي كلها، كأنني أقطع جزءًا من جلدي لأعيش.

لم يكن الفراق موتًا... بل كان ولادةً جديدةً، أقسى

من الموت نفسه.

✦ الفصل الثالث: «آيات... ونصوص القلب»

بدأت الحكاية الثانية عندما كنتُ في السمستر الأول في الجامعة — برلومًا يبحث عن مكانٍ له بين الزحام.

جئتُ الجامعة صباح الإثنين، دخلتُ إلى قاعةٍ من قاعات الطب، وهناك كانت هي... آيات. كانت ترتدي من البساطة ما يجعل العين تستريح لرؤيتها. اقتربتُ منها رغم ترددي. حاولتُ مراتٍ، وفي كل مرةٍ يردّد قلبي الرفض، لكنها منحتني القبول.

في جلستنا الأولى صار بيننا حديثٌ بصوتٍ خافتٍ ونبرةٍ تخبّئ حبًا غامضًا. سألتها عن هواياتها المفضلة، فابتسمت وقالت: «القراءة.»

حين سألتها عن الكتب، أجابت بصوتٍ يليق بعمقها:
«أحب الفلسفة... أول كتاب قرأته كان تأملات الفلسفة.»

عندها أدركت أنني أمام إنسانةٍ ستعلّمني كيف أقرأ العالم بقلبٍ مفتوح.

كانت آيات نصي الذي قرأني قبل أن أقرأه. بفضلها فتحتُ كتبًا ما حلمتُ أن أمسكها يومًا. صارت القراءة عندي صلاةً ثانيةً. صار قلبي مكتبةً صغيرةً تحمل اسمها.

لكن للحياة فصلاً لا يكتبه العاشقون... جاءت حرب السودان، خمسة عشر من أبريل، فرقنا القدر إلى الأبد. رحلت آيات، وبقيتُ أنا هنا أصنع من الكتب حضنًا لها بين أوراقي. أسأل الله أن يتقبّلها.

✦ الفصل الرابع: «ˢ BAYSEELˢ ... أنفاق الحب»

بعد آيات، ظننتُ أن الحب انتهى. الغربة أكلتني، البرد صنع في صدري كهفًا من الوحدة. ثم جاءت ˢ BAYSEELˢ — ليزا — الفتاة التي أعدتُ تسميتها كي تكون لي وحدي.

التقينا في طرقات موسكو الجميلة، في محطات مترو القناعة. النظرات بدأت في الأنفاق الباردة، تحت مدينةٍ تحتفظ بأسرار الناس.

تقدّمتُ لها رغم كسري وضعفي لغتي الروسية، لكن قلبي كان يترجم عني. قالت لي «نعم» بلغةٍ لا تشبه الكلام.

بدأت علاقتنا هناك — صغيرة مثل زهرةٍ في صقيع موسكو، لكنها أنبتت لي قلبًا جديدًا. مع ليزا تعلّمت أن الغربة أقلّ وحشةً إن وجدت من يصغي لصمتك.

تحسّنت لغتي، وتحسّن كل شيءٍ في داخلي. صارت

يدي يدها، وصارت موسكو وطنًا مؤقتًا أنقذتني فيه من شتاءٍ طويلٍ في قلبي.

وفي ليالي موسكو الباردة، كنتُ أضمّ غيابها إلى صدري، وأحلم بأن تعانقني مرّة أخرى...

الفصل الخامس: «كانت تعانقنا»

إنّ تعانقنا مـرةً أخرى...
سأغفرُ للعالم إساءاتُه،
وسأعفوا عن الغائبين،
وسأعذِرُ كل الراحلين.
حين تعانقنا، تُمحى كل الوجوه المؤلمة،
وتُزهر في قلبي زهرةُ سلامٍ نادرة.
سأحتضنكَ رغم المسافات،
وأبقى في انتظار اللقاء رغم البعد والغياب.
حين تعانقنا،

تختفي كل الأزمان،
وتصبح الوحدة جسرًا إلى الأمل،
والحبّ يكتب فصوله من جديد.

✦ الفصل السادس: «يوم النصر وصدى الذكريات»

في ذلك اليوم البارد في موسكو، وقفتُ وسط الحشود عند النصب التذكاري، حيث تكسّرت أشعة الشمس بين الأعلام الحمراء التي ترفرف بخفة، والشموع التي ترقص نيرانها مع نسيم الربيع البارد.
الأرض كانت مغطاة ببحر من الزهور الحمراء، وأصوات الأناشيد الوطنية تعلو بهدوء، ممزوجة بهمسات الحضور.
اقتربت مني امرأة مسنة ترتدي شالاً روسياً تقليدياً مزخرفًا بألوان داكنة. تجاعيد وجهها كانت تروي سنوات الألم والصبر، وعيناها الزرقاوان اللامعتان تعكسان حكايات الحرب التي لا تُمحى.
بصوت هادئ مثقل بالعاطفة قالت:
«فقدت زوجي وأصدقائي في تلك الحرب... كانت أيامًا صعبة، مليئة بالدموع والخوف. لكننا تمسكنا بالأمل، لأننا كنا نؤمن بأن النصر يأتي بعد كل معاناة.»
نظرتُ إليها بعينين تملؤهما الحزن، وأخبرتها:

«أنا أيضًا فقدت شخصًا عزيزًا في الحرب... لم أذكر اسمه لأحد، لكنه كان روحي ونبضي.»

مدّت يدها برقة لتضم يدي، وصوتها يهتز بالحنان:

«الألم يجمعنا، مهما اختلفت الأرض واللغة. كل جرح هو قصة حب وخسارة. والأمل هو ما يجعلنا نعيش، حتى في أصعب اللحظات.»

من حولنا، كانت أصوات خطوات الحضور تتداخل مع صوت الرياح التي تمر بين الأشجار، حاملة معها رائحة الزهور الطازجة. بعض الناس يمررون أصابعهم برقة على أسماء الشهداء المنقوشة على الحجر، بينما تنبعث من بعيد ألحان أغنية وطنية تغمر المكان بشعور من التضامن والسلام.

همستُ وأنا أغمض عينيّ للحظة:

«في ذلك الصمت والبرد، تعلمتُ أن الحب لا يموت، حتى لو غابت الأجساد.»

ابتسمت العجوز بهدوء وقالت:

«وهذا هو النصر الحقيقي، أن نستمر في الحب رغم كل ما فقدناه.»

ثم ابتعدت ببطء، وتركتني مع دفء كلماتها وسط صقيع موسكو، وأمل يضيء في قلبي، رغم كل الألم

والغياب.

✦ الخاتمة: «حين تهدأ المدن في قلبي»

حين تذوب المدن في قلبي، يبقى بعضي معلقًا هناك... بين شارعٍ في الفاشر حمل أول خفقة خجولة، ومقعدٍ في قاعة جامعةٍ علّمني كيف أقرأ العالم بقلبٍ مفتوح، وبين رصيفٍ باردٍ في موسكو احتواني حين لفظتني الحرب.

هذه الحكاية ليست خاتمةً بقدر ما هي استراحةٌ قصيرةٌ لروحٍ أرهقها الفقد، لكنها لم تفقد أبدًا شهيتها للحب. فما دام في القلب متسعٌ للذكرى، ستظل الأبواب مواربةً لوجوهٍ جديدةٍ تطرقها، وأيدٍ تمتدُّ لتربّت على كتف وحدتك.

ربما تأتي أيامٌ تحلُّ فيها الأقدارُ عُقَدَها، وتعيد لي ما خسرته أو تعوّضني عمّا انكسر داخلي. وربما لا يحدث شيء... فيبقى الحب في قلبي غيمةً مؤجلةً تهطل حين تشاء.

إلى حينٍ آخر... أودعكم هنا، وأطوي هذه الصفحات،

وأخبئها تحت وسادتي. عسى أن أكتب فصلًا جديدًا يومًا ما — حين تهدأ المدن في قلبي، وتحلُّ الأيام ما لم يحله الكلام.

الاقتباسات:

1️⃣ «حين تهدأ المدن في قلبي، يبقى بعضي معلقًا هناك...»

2️⃣ «ربما تأتي أيامٌ تحلُّ فيها الأقدارُ عُقَدَها، وتعيد لي ما خسرته...»

3️⃣ «الغربة أقلّ وحشةً إن وجدت من يصغي لصمتك...»

عن المؤلف:

مرتضى إدريس ضيفة سالم، كاتب سوداني من مواليد 2003، ينحدر من مدينة الفاشر – حي الرياض شمال، ويقيم حاليًا في موسكو.

تحمل كتاباته وجع الغربة وشوق المدن التي لا تهدأ، وتتناول سيرته العاطفية والإنسانية في ظل الحروب والشتات.

"حين تهدأ المدن" هي روايته الأولى، كتبها ليحفظ

بها ذاكرة قلبه، وأرواح من مرّوا به وتركوا فيه أثرًا لا يُنسى.

✉️ للتواصل: Martadildrisdaifa@gmail.com